



جدل الثقافي والطبيعي في رواية "الطرحان" لعبد الله كروم

The Controversy and Natural Cultural In The Novel
"El-Tarhane" by Abdallah Kerroum

أحسن الصيد

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر، hassan.mwefek@ensb.dz

ملخص:

ارتبط السرد بالهامشي، واتصلت الرواية بالمدينة، فصوّرت حياة الناس فيها، وتركزت أمر الصحراء لفنون أخرى كالشعر، الذي ترعرع في كنف البادية، والتقط كل تفاصيلها، فروى صراع الإنسان من أجل الحياة في بيئة قاسية، ثم يعود السرد من جديد لاكتشاف الصحراء، وكفاح الإنسان من أجل قطرة "حبة" ماء، ومن أجل "لحظة" سلام مستحيل، تفسد الأحقاد صفوها وتقضي الخلافات الشخصية والقبيلة على استقرارها، وتزيد من معاناة الناس فيها، وتأتي الحرب لتغير ملامح الحياة ومصائر البشر. تحاول هذه الورقة البحث في منجز سردي جديد، هو رواية "الطرحان" للروائي الجزائري عبد الله كروم، التي تتوغل في جنوب الصحراء، وتوغل في سرد محكياتها، من خلال قرية الطين، الممتدة فوق جغرافيا رمال أدرار، وتاريخ حضارة "توات" العريقة؛ ومن خلال بطل الرواية "السباعي" ولّد نجوم" يعيد السارد طرح قضايا ثقافية وتاريخية تتصل بإنسان الصحراء، وصراعه مع الطبيعة والناس، وتطرح من جديد قضايا الاستعمار، وما بعد الاستعمار، والتحرر من العبودية والاستغلال.

كلمات مفتاحية: الطرحان؛ الثقافي؛ الطبيعي؛ الصحراء؛ الحرب.

Summary:

The narration was connected to the marginal, and the novel was connected to the city, so it portrayed the people lives there, and left the matter of the desert to other arts such as poetry, which grew up in the

desert and captured all its details. It narrated man's struggle for life in a harsh environment, and then the narrative returns again to the discovery of the desert and man's struggle. For the sake of a drop of "grain" of water, and for the sake of a "moment" of impossible peace, grudges spoil its restfulness, personal and tribal differences destroy its stability, increase the people's suffering in it, and war comes to change the features of life and the people's destinies. This paper attempts to investigate a new narrative achievement, which is the novel "Al-Tarhan" by the Algerian novelist Abdullah Karroum. Indeed, it penetrates the southern Sahara, and delves into the narration of its stories, through the village of clay, which extends over the geography of the Adrar sands, and the history of the ancient "Tuat" civilization. Through the protagonist of the novel, "Al-Sibai Ould Njoum," the narrator re-presents cultural and historical issues related to the man of the desert and his struggle with nature and people, and raises again the issues of colonialism, post-colonialism, and liberation from slavery and exploitation.

Keywords. El-Tarhane; Cultural; Natural; Desert; War

مقدمة:

نشأ الأدب العربي في كنف الصحراء، وقدم لنا منذ البداية عوالمها الساحرة، وطقوسها العجيبة، وروى قصص الفرسان والعشاق، والصعاليك وقطاع الطرق والشرطار، فالصحراء هي المهد الأول الذي ترعرع فيه الشعر، وفي مجالس السُّمّار ظهر السرد وفي ثنايا الحكايا والملاحم والأساطير، وكرامات أولياء الله الصالحين أوراق وأزهر، فاهتم بكل عجيب، وقدم لوحات عن عالم قاسٍ، مظلم تكتنفه الوحشة ويفتك به العطش، يحذق به الموت من كل جانب، وعن إنسان الصحراء الثابت في العراء، الشامخ كشجرة النخل، خبر المهاوي، وتعايش مع الموت، وتشبّث بالحياة، وشرب كأس الصبر حتى آخر رمق، وتدرّب على التنقل والسفر عبر المسالك المهلكة: "هنا كان الإنسان الأول على أديم هذه الصحاري الظامئة يخفف من جنون الشمس وسوطها اللاهب، ويعين رفيقه النخل على الصمود، ليبقي تمره على غواية النضارة." (1)

يعود بنا السارد إلى قلب الصحراء، ليحكي قصة حضارة إنسانية غابرة، سادت الناس في قلب الهاجرة ردحاً من الزمن، وعند ملتقى الحضارات، ونقطة التقاطع بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب نشأت حضارة "توات"، التي توغلت في إفريقيا، وسيطرت على قوافل التجارة، وساهمت في نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، ومحاربة الجهل والسحر والشعوذة والفقر، يصف ابن بطوطة قراها المتناثرة على مرّ

الساحل الإفريقي، ويصف قصورها الطينية المشيدة فوق الرمال بقوله: "ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قصور توات، وأرضها رمال وسبخ، وثمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وأن أكثر أكلها التمر والجراد..".⁽²⁾ تعود بنا رواية عبد الله حُرّوم إلى تاريخ توات وحضارتها وواقع الصحراء الجنوبية الموعلة في القساوة والغموض، وتقرب من واقع الإنسان، وصراهم من أجل "حبة" ماء، ورمق طعام، فيحك الروائي سرده من قصص الناس ومروياتهم التي تتسع الرواية لسماع نزر منها قليل، وتضيق عن رواية أحلام الحب والحياة ومغامرات الموت، وصراع البقاء.

تحاول هذه الورقة البحثية الكشف عن طبيعة هذا المنجز الروائي الجديد، لروائي جديد، يظهر نضجا كبيرا في فنه، ويعلن عن نفسه كاتب الصحراء الأول، يتناول الصحراء من داخلها، يعرفها بمسالكها وممالكها ومهلكها، ويعرفها بأسمائها وألقابها، يقف على أعجاز النخل الخاوية، يهز شجرة السرد، ليُساقط رطبها ويابسها؛ فمن عقب تاريخ توات المنسي، وتضاريس الصحراء الوعرة المجذبة، تبدأ القصة، ويتدفق شلال السرد في صحراء يفتك بها الظمأ، ويبطش بها الجوع، ويحذق بها الموت، وتسري في أوصالها الدسائس والفتن، وتنهشها المظالم والصراعات من أجل الماء والسلطة والحب وكرامة العيش المستباحة: "سنحدثكم عنا وعننا، والتفاصيل الأكثر هي عند الناطق باسمنا السباعي..".⁽³⁾

تغوص الرواية في قلب الحكاية، وتستدرج غواية السرد القارئ للدخول إلى عوالمها الساحرة، فيلقي بنفسه في غمار سرد لُجّي لا يقاوم، يقذف بك إلى قصبة الطين، فوق الرمال الزاحفة، والمياه الغائرة والمتدفقة من "الفقارة"، وحيث الصراع الأبدي بين الماء والطين، والبحث عن الانتماء والهوية المهددة بالفناء "المقطوع من الشجرة"؛ شجرة التاريخ والانتماء "السباعي ولد نجوم". فالصحراء في "الطرحان" ليست مخيالا يسبح في فضاءات السرد الروائي، يذروها السارد حيناً، ويعيد ترتيبها وفق برنامج السرد الذي يتوقعه حيناً آخر، وهي ليست صورة قديمة مختزنة في ذاكرة الراوي يحاول استعادة تفاصيلها من جديد، فالصحراء في طرح عبد الله حُرّوم، كائن يحس ويتكلم، ويعشق، وينتقم ويتذكر وينسى، ويحلم وهي في النهاية كائن من ماء وطن، له ذاكرة وله شفتين ولسان تعيد مدونة حُرّوم محاورته من جديد، فكأنه يحاول كتابة تاريخ جديد لعالم منسي، طواه البعد، وهَمّشته الجغرافيا، واستبعد من دائرة التاريخ لأن التاريخ كما يقول السارد يكتبه الأقوياء.

تسعى هذه المقاربة النقدية إزاحة اللثام عن عالم عبد كروم السردى، والبحث في هويته الفنية والثقافية، وهي دراسة في المرجع والرؤية، فالرواية تعيد طرح الأسئلة القديمة القادمة من الصحراء، التي تتعلق بالعرق واللون والجنس، وبعنجهية الرجل الأبيض وغروره وصلفه. والبداية من عتبات النص التي حرص الكاتب على تسييج نصه بها، وتحصينه من التقليد والتزييف، واتهامه بالسطحية والجمود. فبالنسبة له الصحراء مركز العالم، والكون وما سواها هامش وليس العكس: "ففي قلب ذلك المكان الشاسع، تتأسس بواسطة التمثيل السردى كتلة قيم ضخمة لها رؤاها، وتصوّراتها للعالم والحياة، ولها حكاياتها وأساطيرها".⁽⁴⁾

2. سيمياء العنوان "رجل بين عالمين":

2.1. عتبات السرد وحدود التأويل؟

يعتبر العنوان في الدراسات السردية الحديثة نصّاً موازيا، يحيل إلى النص الرئيس، ويفتح رموزه، ويثي بمكنوناته ويبوح بمدلولاته من البداية، لذلك يحرص الكتاب والشعراء على انتقاء عناوين خاصة لمدوناتهم، فالكتب حسب بعضهم تقرأ من عناوينها، والعنوان مفتاح النص، وقفله أيضا، يسمّه ويختصره، ويمنحه اسمه، ويظل ملاحقا له، كعلامة لغوية وثقافية وتجارية أيضا خاصة به فقط: "العنوان حامل معنى، وحمّال وجوه، موازٍ دلالي للنص، وعتبة قرائية مقابلة له. . ، وفي كلّ الأحوال فإنّ العنوان موضوع للتأويل، ومفتاح تأويلي للنص الذي يُعنونه، وإن كان يمكن أن يكون خادعاً مراوغاً، سرايباً، عندما يُبنى على قصيدة الإثارة والإغراء. . " (5).

يحيلنا الطّرحان على نظام القبيلة وأعرافها، فالطّرحان قانون اقتصادي يصادر بموجبه جميع الأملاك المرهونة لدى الأشخاص، يقوم الموكل بـ "الزّمام" الكُرّاسة الأعلى التي تدوّن فيها كل الأملاك والأوقاف الخاصة بالقصبة وأبنائها، وتضمّ الوصايا، والرهائن من البساتين والسّباخ وموارد الماء وغلّال الزّرع والثمر وغيرها، يسهر شيخ القصبة "القلّوش" على تنفيذ أحكامها بصرامة كبيرة، وبحضور الأعيان وكبراء القبيلة؛ فالطّرحان وثيقة وسند يعترف فيه المدين بحق الدّائن وشروطه الملزمة، فأحكامه نافذة ولازّية، ونهائية لا تقبل النّقض، وموعد تنفيذها عاجل لا يقبل التأخير، فالطّرحان شريعة المتعاقدين: "قرأ عليّ الطّالب قلّوش ووثيقة الطّرحان، ثم أخفاها تحت كُمّه ورفع أصابع يديه للأعلى قائلا: أنت تعرف، هذا وقت الموعد). . . " (6).

يحمل الطرحان دلالة الإقصاء والإلغاء، فالطرح انتقاص وتهميش، والطرحان قدر مكتوب، لا سبيل لردّه ومقاومته، معترف به عند الخاصة والعامة، يمثل نقطة التحول في الرواية، فبوجوده تتغير مصائر الشخصيات، وبسلطته تتغير معالم الأمكنة وحدودها، فالطرحان ضياع وخسارة وبلاء لا طاقة للناس هنا عليه، ينزل كالصّاعقة، ويحضر كالموت وهو شرّ مستطير: "وما إن رأتهما أُمّي حتى فغر فوها، وبرزت باصرتها على اتساعهما، ووضعت يدها اليمنى على صدرها، وشدّت بيسراها على رأسها، وولولت، بمعنى صاحت (يا ويلي) كناية عن الضياع والخسران ذلك كافٍ لأن أفهم أنّه الموعد المحدّد لإرجاع ثمانية صيّاع من القمح ومبلغا من المال أخذتهما سلفا من مولاي النّعيمي يوم دخول النّائر وفق قانون الطّرحان. لأجل معلوم هو هذا اليوم.. (7)"

صودرت أملاك السباعي كلّها بموجب قانون الطّرحان، وأخذ النّعيمي - صهره المستقبلي- كلّ شيء، وعاد السّباعي ولد نجوم إلى نقطة الصّفّر أو تحتها بقليل، وقد تحالفت عليه كلّ قوى الشرّ والخير، وعقدت العزم على إخضاعه وإذلاله، ليختار الخروج من القصبة باتجاه الجنوب، بحثا عن عمل يعيل به أمه وأخته المريضة، ويسدّ به رمق الفاقة والجوع.

يجد القارئ لرواية الطّرحان نفسه حائراً لم اختار الكاتب هذا الاسم الغريب عنوانا لروايته التي تعج بالأسماء والألقاب وبالأحداث والوقائع؟ فمن أسماء مثل حبيبة القلب "الياقوت"، أو اسم الوالدة "الخدام"، وحتى اسم "النّيرة" ومعلمه "القلّوش" وصديقيه "الحسّاني" و"بازا"، وصهره اللدود "النّعيمي"، أوجدّه "سي أحمد الكعوي" أو اسم "الشّلال" صاحب الصّوت الجميل والأغاني الشعبية الغزلية الحاملة. تتسع الرواية لأسماء عربية وغربية ومن أقصى الشّرق أسماء من "الفيتنام"، وأسماء أمكنة نعرفها ولا نعرفها طواها التاريخ، وسكتت عنها الجغرافيا، ولكنّ الأمور بخواتمها، والطّرحان كان خاتمة صادمة، تختصر كلّ الأحداث والأسماء والأمكنة.

الطّرحان نقطة تحوّل في شخصية البطل "السباعي"، نقلة بين عالمين مناقضين، واحد خبره وكبر معه وفيه، يرتبط بالقصبة حيث ذكريات الطفولة وأحلام الشاب العاشق، المتعلّق بالأرض الذي لا تثنيه الخطوب، ولا تلويه الرياح، إنّهُ عالم الصّحراء القاسي، الأسر رغم شقائه وبؤسه، حلو كتمر النّّ خيل، عذب كماء الفقّارة الرّقراق عبر السواقي والمصبّات؛ وعالم جديد صعب يعرف "السباعي" مبتدأه ويجهل خبره، يحسّ فيه بالغرابة

والضياح؛ هو هذا العالم الذي أُلقي فيه ذات يوم عنوة، ولم يكن مستعداً لولوجه والتأقلم معه؛ عالم يعجّ بالاضطراب والفتن، والمؤامرات، وتفوح منه رائحة الموت. الطّرحان معاملة اقتصادية تخفي بداخلها، تواطأ الفقهاء ورجال الدّين، مع الكبراء والسادة والموسرين، يسلبون الضعفاء أموالهم وأراضيهم، بقوة العُرف والدّين: "وكانوا شهوداً على كتابة الزور، وامتألوا بالخوف من القوي وأرباب المال وعدم نصرّة الضعيف أحياناً، وبلعوا ألسنتهم عن استغلال الإقطاعيين للضعفاء في معاملة الطرحان التي طرّحت بي كلّ مطرح وأخرجتني من قريتي، كما صمّوا آذانهم، وعموا أعينهم عن ممارسات لا يقبلها شرع أو عقل" (8)

إنّ الطّرحان هو الحدّ الفاصل بين عالم الصّحراء والقبيلة، وعالم جديد أكثر نعومة، يقترب فيه البطل من الآخر ويلقي بنفسه متعباً؛ هو عالم تمثله الفتاة الفرنسية "نادين" الجميلة البيضاء المثقفة، الرافضة للحرب، عاشقة الفن والأدب: "اسم الدّلع (نادين) امرأة بارعة الحسن، اختفت في نظرتها تلك كل مدونة الشلال، وتلاشت صافية الابتسامة عيشة مباركة، وتبدّدت صورة الخادم التي جمعت كل حسن في القول والفعل والخلق، ولأمر ما لم أذكر الياقوت. " (9)

الطّرحان منزلة بين واقعين، واحد للذكور وآخر للنسيان؛ فذاكرة "السّباعي" بدأت تتعطلّ ويصيبها العطب، وتستسلم للنسيان، كلّما اقتربت من الآخر، وابتعدت عن الصّحراء، فقد بدأ البطل مع مرور الوقت في الانفصال عن عالمه الجميل، والتعوّد على واقع جديد، طرحه خارج القصة وخارج الحدود، يقاتل عن أرض ليست أرضه، وعن أمة ليست أمته، وعن قضية لا تعنيه.

2.2: الهوية الثقافية في رواية الطّرحان:

منذ لحظة القراءة الأولى لرواية "الطّرحان" ينتابنا إحساس غريب ونحن بصدد مواجهة كاتب، استعدّ جيّداً لتقديم عمله، ويكون قد درسه من جميع جوانبه، فقد تحضّر له منذ زمن بعيد، وتجهّز لتقديمه، فهو روائي عليم، مدجّج بمنظومة من الحقائق والخبرات، والقيم والمفاهيم المحكمة النسج والصياغة، يعي جيداً عوالمه السّردية، ويعرف كيف يشكّلها، ويطوّعها خدمة لهويته الثقافية، فالروائي لا يبحث عن هوية ضائعة في قلب الصّحراء، مدفونة فوق رمال متحركة، أو مقابر منسية عبثت بها الرياح شمالاً وجنوباً، فالهوية الثقافية في منجز عبد الله كروم واضحة، لا ينتابها الشك، ولا تشوبها شائبة: "حين

يسألني البعض عما أكون "في قرارة نفسي"، يفترض هذا السؤال أنه يوجد في قرارة كل إنسان، انتماء واحد ذو أهمية، هو "حقيقته الدفينة" نوعا ما، و"جوهره" الذي يتحدد تحديداً نهائياً عند الولادة ولا يتغير قط، كما لو أنّ الباقي بمجمله أي مساره كإنسان حرّ وآراءه المكتسبة، وميوله، وحساسيته الخاصة، وأهواءه، وباختصار حياته بأكملها تصبح عديمة القيمة...⁽¹⁰⁾.

يوجد في قرارة البطل هوية ثقافية واحدة هي هوية الصّحراء، وانتماء واحد هو الإخلاص لها والدّفاع عنها وحتى الموت لأجلها في أقصى الدّنيا إن لزم الأمر، إنّ هوية الكاتب واحدة لا تتمزق حاضرة لا تستلزم البحث والتنقيب، فهو ملتصق بأرضه معجون بمائها وطينها: "في قصبة الطّين تلك التي وصفت لك نشأت، وبين جدرانها المتسامقة ترعرعت، وتحت سراديبها لهوت، في بيت طيني سكنت، أو قلّ كوخاً جماعياً وانتهى الأمر، ظلّته أدخنة نار الطّهي بسوادها، فيه صرختُ صرخة الدّهشة الأولى من عالم الكُروب والحروب، وعلى أرضه المرملة المجلوبة من واد الرّحيل حبوت، ومن رماله الحرشاء والصّفراء أشبعت بطني... كبرت مع الكتب والدواة والأقلام، وفي رحبته إذا ما تعثرت أعاقطني دواة، وإذا ما سقطت وقعتُ على كتاب مخطوط، أتشمّم عبقه، وأكتحل بخطّه المغربيّ الأندلسي..."⁽¹¹⁾.

يرتبط البطل "السباعي" بالأرض والطّين، والتمر والنّخيل، وخير السواقي، وهدير الفقّارة، ويلتصق بالمكان ويتماها في فيه، وتتجسد الهوية في ألفة الإنسان بالإنسان، وفي علاقة الإنسان بالطبيعة أيضاً إلى درجة التوحّد والانصهار، فالرواية في النهاية تحكي قصة صراع الإنسان في الصّحراء البعيدة مع الحياة، من أجل الماء والبقاء، فقد مات والد السباعي من أجل قطرة ماء واحدة: "أبي قضى في جهاد من أجل قطرة الماء، انضمّ إلى قافلة طويلة من الشّهداء، شهداء واجب جلب الماء، وإحياء الأرض بعد مواتها، رابط في نفق بين بئرين، وأراد من زميله سحب كمّيّات التراب والحجارة لفكّ الماء في النّفق الأرضي من الفقارة، مرّ زميله دحمان النّقار، ولمّا جاء دور أبي نزلت عليه صخرة وسحقته تلك الكُدية المشؤومة، وأصبح البئر من يومها بئر نجوم، هكذا سمعت القصّة على أصوات النّحيب..."⁽¹²⁾.

3.2 الصّحراء وصراع الماء والطين (الإنسان) :

تتعاقب أحداث القصّة، ويتسارع نبض السّرد، ويضعنا السّارد في أصل الحكاية من جديد، حكاية شعب في الصّحراء، يدافع عن وجوده وأرضه، يواجه قساوة الطّبيعة وجدها، ويحارب وحده أسراب الجراد الجائع الذي يأكل الأخضر واليابس، ويهاجم نواطير القمح وغلال الذرة، ليُلْتهم الزّرع والهشيم، ويزيد الحياة شؤماً وتعاسة، والأمور تعقيداً، وتذهب صيحات الجميع وعناءهم في صدّه أدراج الرياح، فهو طوفان لا يتوقف، ومخلوق عجيب لا يتعب، يلتقط السّارد تلك اللّحظات الموجعة بدقّة بالغة، ويقدم مشهد الغزو في لوحة سوداء داكنة تلخص صراع الإنسان العبي مع الطّبيعة الجائرة، ويرسم المشهد كما لو كان واقعياً فعلاً: " لم يمر وقت طويل حتى سمعنا صيحات الناس تتعالى لحماية البساتين من موجة جراد جائع، كبير، هو الذي غطّى الشّمس وحجبها، وهو يتنمر بالبساتين، ولو بقي دون مكافحة سيجعل الديار بلاقع والمزروعات قاعاً صفصفاً. رأيت بعيني رأسي الجراد الشره يأكل كلّ شيء أمامه، يلتهم الزرع والسّعف الأخضر واليابس. . بدأنا نصيح ونطرد الجراد بكلمتي (هوي هوي) بينما هو كجيش عدواني جائع لا يبالي بصرخاتنا. . بتنا إلى الصبح نصيح فيه، ونترجّاه أن يُقلع من بستاننا، لكنّه كان شرّها ومُراوغاً. . " (13).

البطل هو ابن النّخلة والرّمال الرّاحفة، والماء والطين، يدافع عن هويته وثقافته، ويحمل رموزها وأسرارها في مخياله، ويعرضها مرصوفة كحبات العقد والجوهر، تزين بها عوالمه السّردية، وتترصّع بها لغة السّرد القصصي الجذاب، فالهويّة الثقافية لرجل الصّحراء جلية، تحضر في أغاني "الشّلاّلي" وغزله، وطبله ولازمته التي تجعل الجميع طرباً هزجاً يهذي بصاحبته، وللشّلاّلي في ذلك فنون وأشجان وألوان من التجلي والأمانيات، تجعل من "السباعي" وأصحابه سكارى، كلّ يهذي بصاحبته ناءٍ ودانٍ ومخبولٍ ومختبلٍ.

الرواية فيض من الخواطر والرؤى والأحلام، والأغاني الشعبية والأهازيج، فرجل الصّحراء لا يستسلم لأحزانه، ولا يكتنم نشوة الأفراح، بل يطلق لها العنان حدّ الانفلات والزّيف: " يشدّ من أزر الأغنية باللازمة التي تاهت فيها شفاهي، وأنا أحرص على مسكها، ولكنها تنفلت منّي مثلما تخون المهارة متعلم السّباحة المبتدئ، أسارع اللّحاق بالزّفة لأجد الوصلة قد سبقتي. أجد بازاً يتمايل طرباً عندما يسمع في ثنايا الأغنية (عيشة مباركة) وهو نفس اسم عشيقته، وينثني عليه الحسّاني بميلةٍ راشقةٍ عندما يذكر فيها اسم (الخادم) في نفس

البيت والأغنية (عيشة مباركة والخادم صافي لبسًا) فأزيد تمها لأفقد توازني؛ لأنّ الياقوت لم تذكر في القصيدة. " (14).

تحضر الصحراء وطقوسها العجيبة في رواية "الطرحان"، وتحضر رمزيها الثقافية والإنسانية من خلال ما أبدعته مخيلة الكاتب، الذي بدا مُلمّاً بتفاصيل هذه الثقافة، من أدب وغناء وموسيقى، ومن تاريخ الصحراء وتضاريسها، ومن معاناة الإنسان في هذه الطبيعة الصعبة، التي علمته الصبر والعناد، وعدم الرضوخ والاستسلام، فهو رجل لا يؤمن بالمستحيل، يلخصه موقف "بازا" الذي ظلّ يلاحق عشيقته حتى مصب الماء إلى مدخل القصة، وقد صادف والدها مهّداً يحمل بندقيته المرسّعة بالنجوم: " (لوكان توصل لها نقصفك). ولما دخل علي بازّا كان العرق البارد يسري في إبطه حملق عينيه، وضرب دناً كان بقربه، وصاح نوصل ليها لو كان تراه يقصف عمري تمّا ولو كان يرشّي عظمي في القبر. . لوكان يشيب الغراب وتموت البومة. . لوكان تولد البغلة بشرط وتصيب تواما. . والتّخلة ما تولد تمر. . (15).

تتغيّر هوية "السباعي" عندما يقترب من الآخر، وتتبدّل نظرته للعالم والأشياء، فالحرب الكونية طرحته خارج خارطة الثقافة والهوية التي يعرفها، واستبعد من محضنه الثقافي عنوة، وصودرت أملاكه، وأفراحه تأجّلت، وطوّح العالم حتى السند، وعاد بهوية جديدة، ممزقة طالها التشويه، يقف على "أطلال نخل خاوية"، لقد تغيّر الزمان والمكان، ولازالت دار لقمان على حالها، عاد السباعي ولد نجوم للقبيلة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، يصطحب زوجته الفيتنامية كغنيمه حرب، وابنه "الشينوي"، ووجد بقايا امرأة كانت حبيبته "ياقوت" لازالت تهذي بحبه، وتنتظر عودته بقلب عاقل وعقل مجنون: "الياقوت" التي كدت أتزوجها مرتين تُجنّ هياما بي، ولولا (الطرحان) والتجنيد الإجباري في حرب لاندوشين لكنت زوجها، غير أنّ ما حدث لي يشيب لهوله الغراب، أفقرني الطرحان وسلبني ما أملك. . (16).

عاد "المقطوع من شجرة" إلى مسقط الذكريات، وقد تبدّل الحال، عاد متأرجحا، مشوّها، يعرج برجله المعطوبة، وهويته المستلبة، فغريته الطويلة جعلت المكان يتنكر له؛ فهويته الجديدة حرمت من عناق عروس الواحة، والمكان تحول بعد فرح وبهجة إلى خراب، فالهوية المعطوبة عاجزة عن التعرّف على المكان: "نزلت من سطح "لاندروفر" الرمادية عند

النقطة التي انطلقت منها ذات صيف حارٍ، وتوقفت عند نخلة "تادمايت" التي غرسها بيدي نواة عندما أكلت التمرة الأولى، من ثلاث تمرات هنّ زاد السباعي في السفر إلى حموديا برقان، ولكنني اليوم أمام نخلة بدأت تمدّ عنقها إلى عنان السماء، عجزت أن أتسلقها وأقطف ثمرة واحدة منها، وأنا النّخلاوي الخبير بشؤونها، ويبدو أنّ العروجة التي أعانها من كلفة الحرب حالت دون أن أحضن عروس الواحة.. " (17).

تُدافع رواية "الطرحان" عن الهوية الثقافية للصّحراء، وتنقل في سحاء سردي فريد، ألوان هذه الثقافة، وتلقي الضّوء على مشاهد منها، وهي مشاهد أقرب للواقع منها إلى التخيل، فصورة الصّحراء عند السّارد والكاتب معاً، فطرية غير مكتسبة، تنبع من ذات خبرت الصّحراء، وتقلّبت فيها، واستوت في ربوعها، وهي ليست صوراً مرتسمة في الميخال، انتقلت عبر المرويات والسرود، كما هو واضح في تجارب كثيرة من سرد الصّحراء؛ التي تمتع من معاناة الآخرين، ورؤاهم، وهو ما ورد على لسان "الياقوت": "يطير لُحْمَامٌ وَيَنْ يَطِيرُ وَيَرْجِعُ لَوْكُرُو".

3. المضمّر الثقافي في رواية "الطّرحان":

3.1 المضمّر الثقافي وفاعليته:

إنّ النّص الأدبي من منظور "النّقد الثقافي" هو نص ثقافي يخفي في غلالته البلاغية والجمالية، مضمّرات ثقافية، تتخذ من الوظيفة الجمالية للنصوص قناعاً لها، وترسّخ نفسها عبر خطابات شعرية وسردية مختلفة، وتفرض نفسها بعد ذلك كسلوكيات سلبية وغامضة، يصعب فهمها والتحكّم فيها، وهي برأي الغدّامي أزلية وراسخة لها الغلبة، تدمن الذائقة الأدبية استهلاكها، فهي منغرس في المضمّر الجمعي للأمة وفي الذاكرة الثقافية لها: "فالاستجابة السريعة والواسعة تنبئ عن محرك مضمّر يشبك الأطراف، ويؤسّس للحُبكة النسقية، وقد يكون ذلك في الأغاني أو في الأزياء أو في الحكايات والأمثال مثلما هو في الأشعار والإشاعات والنُكت، كلّ هذه وسائل وحيل بلاغية /جمالية تعتمد على المجاز والتورية وينطوي تحتها نسق ثقافي ثاوٍ في المضمّر، ونحن نستقبله لتوافقه السري وتواطئه مع نسق قديم منغرس فينا" (18).

تظهر هذه الأنساق من خلال العادات الاجتماعية، وفي السلوك، ويعتبر الدّين من الأنساق الثقافية التي تجسد هذه المضمّرات، وأقواها تعبيراً عنها، ورواية "الطّرحان" تفصح في جوانب عديدة منها عن هذا الجزء المهمّ من ثقافتنا وهو الدّين، الذي يعتبر العاصم الذي

يحفظ للمجتمع بناءه، ويحقق له الانسجام والتوافق، ولم يدخر المؤلف جهداً في إظهار فاعلية الدين في الحياة الثقافية والاجتماعية لمجتمع الصحراء، أو مجتمع "الطرحان".

2.3: الدين وفاعلية الحضور والغياب:

يعتبر الدين مكوناً ثقافياً هاماً يتحكم في حاضرنا ومستقبلنا، يتعلّق بالمقدس والغيبّي والمضمّر العقائدي لنا، وقد ولد "السّباعي" في بيئة محافظة ومتدينة، ومن عائلة عالمة بالدين، فجده "سي أحمد العكوي" أحد علماء توات ومن صفوة فقهاء وصوفيين، وقد حاول أن ينقل علمه الرفيع وأسراره العجيبة، وتفقهه في الدين لحفيده "السباعي"، الذي يحمل رمزية الرقم سبعة تيمناً وتفاؤلاً به: " ولم يكن من قبيل المصادفة، في سياق تولد هذا النموذج، أن يغدو عدد المعلقات سبعا عند الكثير من الرواة، كعدد السموات والأرضين، ومرات الطواف حول الكعبة والأيام التي تجمع في أسابيع، واكتمال فرحة التعريس بالدخول على العريس البكر... " (19).

في كنف الجدّ العالم، وفي فضاء

الكتاب ترعرع البطل وحفظ القرآن الكريم، وتفوّق فيه، وفي هذا المكان الذي يتنافس فيه الحفظة، وينبغ فيه العلماء، وهو المكان نفسه تكبر علاقة "ولد نجوم" مع فانتته "الياقوت" التي نافسته حفظ القرآن ونافسته الحبّ، واقتسمت معه فرحة "الختمة" ولحافظ القرآن له مكانة كبيرة، ويوم العرض الكبير، يقام له حفل بهيج تكريماً للحافظين لكتاب الله، وإعلاءً لمكانة القرآن الكريم في قلوبهم، وهو يوم مشهود تزين له القصبة، ويلبس الحفظة أفضل الثياب وهم يتجهزون ويتعطّرون... " وجاء اليوم الموعد والدنيا كلّها لا تسعني من الغبطة، اغتسلت وتطيّبت فيه، وجّهزت لي أُمي حقيبة، فيها القندورة والشّاش وسروال عربي، كلّها بلون الثلج، ومكحلة ومرودها، وقنينة عطر وقبل خروجي ختمتني بنحلة من فضّة، قائلة لي: (لعقوبة لعرسك). لما جئت إلى المسجد، انتصب النعيمي مزهواً بابنته، وقد زيّنها في لباس ملكي، وأجلسها قربه، وتحتم علينا أن نمزّر اللّوحتين على الشيوخ لتمحيصها... وقام كبار البلدة بتلبيسي القندورة والشّاش ووضعوا الكحل في عيني، وملطوا كفي بالحناء، واكتفوا باكتحال وملط يدي الياقوت بالحناء فقط ثم رفعوا الغطاء... " (20).

يحتفي المجتمع الصحراوي بالحفظة، ويعلي شأنهم، ويظّل النّاس يحملونهم ويطوفون بهم في أرجاء القصبة كلّها، مهلّلين ومكبرّين، يستقبلون الهدايا والعطايا والهبات،

وهي على تواضعها تعبر عن مشاعر الفخر والإكبار والاعتراف بالنجاح والتفوق. وتزيد فرحة الحافظين في كونهما عاشقين، يسمعان عبرات الإطراء: "هذان عروسان وليسا حافظين" (21). كان مشهد الحفظ وطقوس الاحتفال مهيبين، أقاما في ذاكرة "السبعائي" و"السبعائية" الجديدة ردحا من الزمن، ورغم شعبية المشهد وروعة استحضاره، يقف السارد ومن ورائه الكاتب العليم، على تصرفات بعض رجال الدين، الذين أدركهم رغم علمهم وورعهم الفساد، ولم يتوان السارد في فضحهم وانتقادهم، والتعريض بسلوكاتهم المشينة، ومظالمهم التي ضاق بها العباد ومنهم: "الشاعر مولاي عبد الهيلة واحد من أولئك الشعراء، الذين أدانوا بهتان الشيوخ وبعض الكتبة ممن غرهم المال، وأرادوا تحويل ملكية إنسان ضعيف لآخر قوي، بينما القاضي الذي كتب الوثيقة قد انحرف وأخذ رشوة، تمثلت في قالب سكر وعلبة من الشاي، وهما يومها أنذر من الكبريت الأحمر. . ورغم أن هذه الفئة كما يقول الغيواني كانت تملك احتراماً كبيراً في المجتمع التواتي، إلا أن بعضهم وقع في الفساد. . رأيت بعض الظلم أمامي، وآلني سكوت الوعاظ عليه، وهو ما جعلني أدين أعمالهم. . سورهم مهد" وشرفاتهم طاحت أرضاً... (22).

ينزع الكاتب عن هذه الطبقة من المجتمع صفة النزاهة والتقديس، ويعرضها لميزان النقد والمساءلة الاجتماعية والثقافية، ف" القلوش" هذه الشخصية الطريفة التي تجمع بين الجد والهزل، وبين الصرامة واليسر، يتورط كمعلم للقرآن في الشبهات، وتطاله السنة طلبته، ولم يسلم من التعريض والتنكيت، ولم يتنزه عن أفعال السوء، والتحرش بالجماليات من طالبات الصف، وتدور الأخبار في السر فلا أحد يجروء على روايتها: "سألها يوما عن الطالب قلوش وعلاقته بالبنات، فسررت لي أخباراً غريبة عنه، أكدت لي أنه أفرد للبنات حصّة خاصّة بهنّ وبدعوى تعليمهنّ أمور دينهنّ يقف طويلاً عند شرح الآيات التي فيها حديث عن الأعضاء الحساسة عند المرأة، ويحاول أن يشرحها بطريقة فاضحة، إذ يقف مطوّلاً عند قول ابن عاشر في نواقض الوضوء (إلطاف امرأة كذا مس ذكر...)" (23).

يستغل الطالب قلوش مقولة (لإحياء في الدين)، ويجعلها مطية للتنفيس عن نزواته المكبوتة تحت غطاء الورع والتدين، فيتفاحس ويتجاسر ليسّي الأشياء بمسمياتها من غير سبب وبقصد. ولكنّه رغم خبئه لا يزال شخصية طريفة، لا تظهر الشر الكبير، فقد كان متحمساً لعلاقة الحبيبين "الياقوت" و"السباعي ولد نجوم" ولا يخفي إعجابه بعلاقتهم وملاءمتهم لبعضهما وتواطئه المريب معهما.

ينفتح المنجز الروائي "الطرحان" على أنساق ثقافية عديدة، ومطارحات نقدية وثقافية ويعطي وجهة نظر على قراءة مختلفة تتعلق بالتاريخ، والدين، والاستبداد، والاستعمار والهيمنة والحرب والتميش، ففي الثلث الأخير من روايته يتجه الآخر ويحاول اكتشافه ومحاورته، وتقويض مقولاته، وتمركزه الثقافي والاثني.

لم يكن نجاح "الطرحان" (جائزة آسيا جبارة لعام 2022) ظرفيا ولا مجاملا، فالرواية حبل بالشغف الثقافي، والمطارحات الفكرية والتاريخية والفلسفية، ولعلّ الوجه الأبرز في متن الرواية وهامشها كان حياة الصحراء الموعلة في الجمال والعراقة والظلم والنسيان والتميش؛ فالطرحان يتسع ليشمل الحوار الدائر بين الشمال والجنوب، وبين الأصل والدخيل، وبين صاحب الأرض وخادمها، ومالك الأرض وسيدها، ويعطي السارد ومن ورائه المؤلف بعدا آخر لمشكلة الإنسان في الصحراء، ليفتح بابا آخر للسرد كان موصداً، وهو مواجهة هذا الإنسان للآخر الغريب، المتمثل في الاستعمار أو الرجل "الأبيض" كما يسميه، والذي كان دوره فصل "السباعي" عن أرضه وعشيرته، واستغلاله أعواما طويلة؛ بزجه في حرب خاسرة.

لقد خبر الحرب وعاش أهوالها، وقد حولته هذه الحرب إلى إنسان ضعيف، معطوب "أعرج" -نصف عاجز-: "أخذ القوم منا الفرح، واغتالوا الزغاريد في الحلق، والبخور في الشجر، والكحل في مروده، وتفزق أصدقاء الجوع الثلاثة أيادي سبأ، بعدما طرح الطرحان منهم كل أوراق الحب، وتناثرت كزغاريد المولد النبوي، ليخرجوا بأرجل الديوك الجالبة للفقر والسلب، وليست الجالبة للرزق كما يزعم الطيبون والطيبات في قصبة المأمون.."⁽²⁴⁾.

تنفتح رواية عبد الله كروم على فضاءات كثيرة للكتابة، والسرد، منها كتابات ما بعد الاستعمار التي تعنى بالأداب القومية، وتاريخ العرقيات والجندر، والزوجة، والدفاع عن الاختلاف الثقافي والطبقي والجنسي، ومحاربة الهيمنة الثقافية للمستعمر، وسبل مقاومة العنصرية، والمركزية الغربية وغيرها، وقد حاول صاحب رواية الطرحان فتح أسئلة الكتابة "ما بعد الكولونيالية"، وإعادة ترتيب هذه العلاقة بين المستعمر والمستعمر، من خلال إثبات الهوية الوطنية، والثقافة الأصلية والإفريقية على وجه خاص، ومن خلال الاهتمام بالبيئة والمكان؛ فالمكان وحده من يحدّد الهوية ويدعمها؛ "يمثل الاهتمام بالمكان، والإزاحة عن

المكان ملمحا رئيسيا كم ملامح آداب ما بعد الكولونيالية، وهو يعني هنا ظهور أزمة خاصة ما بعد كولونيالية تتعلق بالهوية والاهتمام بتطوير أو استعادة علاقة فعالة بين الذات والمكان لتحديد الهوية. " (25).

وخلاصة القول: تختلف رواية الطّرحان عن سرود الصحراء، في كونها خبرة بعوالم الصحراء، وعلاقة الإنسان بطبيعتها، وتمسكه بثقافتها وعاداتها، وهويتها الثقافية والتاريخية، والصراع في هذه البيئة بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي قديم، تحكي رواية الطّرحان جزءا منه وتترك الدور لساردين آخرين.

4. مراجع البحث وإحالاته.

- 1 - عبد الله كزوم: الطّرحان، دار خيال للنشر والترجمة، ط1، برج بوعريّج الجزائر 2022 ص11.
- 2 - ابن بطوطة: تحفة النّضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم الشيخ محمد عبد المنعم العريان، ج2، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت 1987 ص 713.
- 3 - عبد الله كزوم: المصدر نفسه ص 34.
- 4 - عبد الله إبراهيم: السردية العربية، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة موسعة، بيروت لبنان 2008 ص 152.
- 5 - محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2011 ص19.
- 6 - المصدر نفسه ص 90.
- 7 - نفسه ص 89.
- 8 - نفسه ص 29.
- 9 - نفسه ص 146.
- 10 - - أمين معلوف: الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي، ط2 بيروت 2011 ص 9.
- 11 - عبد الله كزوم مصدر سابق ص 95.
- 12 - نفسه ص 110.
- 13 - نفسه ص ص 86، 87.

- 14 - نفسه ص 24.
- 15 - نفسه ص 25. 26.
- 16 - نفسه ص 15.
- 17 - نفسه ص 12.
- 18 - عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء المغرب 2005 ص80.
- 19 - جابر عصفور: غواية التراث، الدار المصرية اللبنانية ط1، القاهرة 2011 ص 44.
- 20 - عبد كروم: المصدر نفسه ص 115. 116.
- 21 - المصدر نفسه ص 116.
- 22 - المصدر نفسه ص 29. 30.
- 23 - المصدر نفسه ص 65.
- 24 - المصدر نفسه ص 160.
- 25 - بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت عصام، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت مارس 2006 ص 27.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن بطوطة: تحفة النُّصَاف في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم الشيخ محمد عبد المنعم العريان، ج2، دار إحياء العلوم ، ط1، بيروت 1987 ص 71.
2. أمين معلوف: الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دار الفارابي، ط2 بيروت 2011 ص 9.
3. بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت عصام، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت مارس 2006 ص 27.
4. جابر عصفور: غواية التراث، الدار المصرية اللبنانية ط1، القاهرة 2011 ص 44.
5. عبد الله إبراهيم: السردية العربية، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة موسعة، بيروت لبنان 2008 ص 152.

1. عبد الله الغدّامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء المغرب 2005 ص80.
2. عبد الله كزّوم: الطّرحان، دار خيال للنشر والترجمة، ط1، برج بوعريّيج الجزائر 2022 ص11.
3. محمد بازي: العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2011 ص19